سطور
في صحبة الأدب الجغرافي العربي

للدكتور محمد محمود محمدين

تمهيد :

موضوع الأدب الجغرافي العربي ، موضوع متشعب بين الزمان والمكان ، وليس في وسع هذا المقال أن يحيط بأطرافه احاطة ترضي كثيرا ممن يغريهم هذا العنوان ، لكل مايهدف اليه المقال بصفة عامة هو محاولة الالمام ببعض أطراف هذا الموضوع والاشارة الى بعض جوانبه رغبة في اثارة الاهتمام بتراثنا الجغرافي العربي وأملا في أن تتحسن طريقة الكتابة المعاصرة في معالجة الموضوعات الجغرافية ·

لقد خطرت لي فكرة هذا المقال منذ سنوات طويلة ، واستهواني موضوعه ، الا أنني ترددت أكثر من مرة في الكتابة ، لكن الفكرة كانت تراود الحاحها علي كلما قرأت لبعض الجغرافيين المعاصرين الذين تغلغلت العجة في أحشاء بعض كتاباتهم بحيث أصبحت أساليبها نابية عن الذوق العربي ولم تراع قواعد النحو والصرف في كثير من الموضوعات ، واخال السدود والحصون اللغوية من نحو وصرف التي أقامها النحاة حماية للغة القرآن ، قد انهارت أمام تيار العجمة الجارف الذي تولد نتيجة سيل الترجمة العارم عن كتابات جغرافية أجنبية · وأضحت بعض هذه الكتابات ذات الأسلوب الغريب السقيم لا تنتمي الى العربية الا في رسم حروفها · ان انتشار الألفاظ الأعجمية في بعض الكتابات الجغرافية لا يرجع الى قصور الكلمات والأساليب العربية بقدر مايرجع الى أولئك الجغرافيين الذين

يعتمدون على الكتب الأجنبية ويترجمون ترجمة لفظية قاموسية ومن أمثلة ذلك : ترجمة تعبير Spring tide بالمد الربيعي ، وهذا خطأ كبير لأنه ليس هناك علاقة بين الربيع والمد ، والمقصود بلفظ Spring (القفاز) وبذلك تصبح الترجمة الصحيحة « المد العالي » وهو الذي يحدث حينما يكون القمر بدرا أو محاقا · ولو حاولنا أن نتتبع مثل هذه الأساليب والتركيبات اللغوية الغريبة لضاقت صفحات عديدة عن احتواء الأمثلة التي نسمعها ونقرؤها ·

ان الخطر الذي نخشاه مع استمرار هذا الاتجاه هو أن يندثر العديد من المصطلحات الجغرافية العربية الأصيلة ويحق عليها الدثور والنسيان · وتتحول الكتابات الجغرافية العربية الى مجرد ترجمات لا تفيد بقدر ماتفسد ولا تسهم الا في تنمية تبعية ثقافية لا تبتدع بل تلهث وراء التقليد ·

الأدب الجغرافي في التراث العربي

لنا نحن العرب تراث جغرافي قيم ثمين خليق أن نعتز به وأن نعني بمواصلة دراسته وتمحيصه حتى نتبين سماته الأصيلة ونتعرف على اسهاماته العديدة لنتخذ من ذلك كله علامات نهتدي بها في سبيل تكوين مدرسة جغرافية عربية ·

ولقد درج بعض المستشرقين وبعض الباحثين العرب على معالجة التراث الجغرافي العربي تحت عنوان الأدب الجغرافي العربي (١) ، فما العلاقة بين الأدب والجغرافيا ؟ وماذا يقصد بالأدب الجغرافي العربي ؟ ·

تتعدد تفسيرات اللغويين والباحثين لأصل كلمة « الأدب » شانها في ذلك شأن كثير من الكلمات · ومما لا جدال فيه أن الأدب عند قدماء العرب يعني السنة وطريقة العمل والتصرف التي سنها الأوائل فصارت مسلكا لمن بعدهم ، فالأدب على ذلك جملة العوائد القديمة الواجب على الانسان سيرها على رأي عرب الجاهلية (٣) · وقال الزبيدي : « الأدب محركة ، الذي يتأدب به الأديب من الناس وسمى به لأنه يؤدب الناس الى المحامد وينهاهم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء (٤) ·

وذكر عبد القادر البغدادي أن اشتقاق الأدب يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب .. فكأنه الشيء الذي يعجب منه لحسنه لأن صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله ، ويجوز أن يكون اشتقاقه من الدعاء فكأنه الشيء الذي يدعو الناس الى المحامد والفضل وينهاهم عن المقابح والجهل (٥) .

واخالني أميل الى رأي نالينو في تفسيره لاشتقاق لفظ الأدب ، حيث يقول : ان لفظ « الدأب » الذي كثر وروده في أشعار الجاهلية ويعني العادة والملازمة ليس بعيدا عن معنى السنة والأدب ، وقد يكون العرب قد جمعوه على آداب أعني على وزن أفعال كما هي الحال بالنسبة لبئر التي تجمع على آبار ، ورأي على آراء لأن جمع دأب لا يذكر في كتب اللغة وحيث أن حسن السيرة والأدب انما كان عند العرب بحفظ ماكانوا قد توارثوه عن أسلافهم من العوائد المستحسنة فلعلهم استعملوا لفظ الآداب للاشارة الى تلك العوائد أي السنة المحمودة ... ثم على تمادي الزمان اشتقوا من ذلك الجمع المتداول اصطلاحه صيغة جديدة لمفرده (٦) .

وقد قصد بالأدب أحيانا جملة ما كان من المعارف وقد عبر عن ذلك الحسن بن سهل (٧) حيث قال : الآداب عشرة وواحدة أربت عليهن ، ستة منها فارسية مثل العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، والطب والهندسة والفروسية ، وثلاثة عربية هي الشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر ومايتلقاه الناس بينهم في المجالس .

ومن ذلك يتضح لنا أنه قصد بالأدب جميع أنواع المعارف والفنون غير الدينية . وقد فرق ياقوت الحموي في كتابه ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، بين الأديب والعالم ، فالأديب يأخذ من كل شيء أحسنه ، فيألفه ، والعالم يقصد بفن من العلم فيعتمله (يتقنه) (٨) يعمل فيه بجد وجهد .

وذكر ابن خلدون في مقدمته أن المقصود من الأدب عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فن المنظوم والمنثور على أساليب العرب . وعرف الأب لويس شيخو اليسوعي علم الأدب بأنه علم يحترز به عن جميع أنواع الخطأ في كلام العرب لفظا وكتابة (٩) .

وخلاصة القول في مدلول لفظ « الأدب » أنه في عرف الجاهلية العوائد الحميدة المتوارثة خلفا عن سلف والتخلق بمحاسن الأخلاق ، ثم اتسع مدلول

هذا اللفظ ليشمل كل المعارف ومنها الجغرافيا والفنون والعلوم وذلك نتيجة اختلاط العرب بأمم غيرهم ·

ولقد كانت الجغرافيا والتاريخ في نظر العرب في العصور الوسطى فرعين متلازمين من من شجرة المعارف العامة التي كانت تسمى « الأدب » بصورة عامة ، فكما كان من الضروري للعربي أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعراءها وكتابها ، فكان لابد أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح الاسلامية ، وكان لزاما عليه ـ اكمالا لثقافته ـ أن يعرف بلاد الاسلام ومدائنها والطرق اليها مع ماتيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم · ومن هنا فانه من العسير أن تفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الاسلامي (١٠) · وحينما زاد الاتصال بالغرب ونشطت الترجمة عن اللغات الأوربية ، استخدم المترجمون لفظ الأدب بمعناه المتداول عند الافرنج فصار معنى الآداب نتيجة لذلك جميع ماصنف في لغة من العلوم أو الشعر والنثر البليغ ·

وعلى ضوء ما استعرضنا من تعريفات للأدب وتطور لمعنى هذا اللفظ ، فاننا نقصد بالأدب الجغرافي العربي تلك النصوص الجغرافية التي كتبت بطريقة جيدة وسبكت في قالب ظريف وصيغت على نمط أنيق ·

نماذج من أدب التراث الجغرافي العربي :

انتشرت المعارف الجغرافية عند العرب قبل الاسلام ، وقد وردت اشارات ذات دلالات جغرافية في أشعار الجاهلية ، كما دونوا كثيرا من ملاحظاتهم الفلكية الخاصة بالأنواء في أمثال سائرة مسجوعة كقولهم :

اذا ظهر سهيل طاب الليل

اذا طلع الشرطان اعتدل الزمان واخضرت الأركان

اذا طلع الدبران يبست الغدران (١١)

وقد وردت معارف جغرافية كثيرة في أشعار العرب آثرنا أن نكتفي بنماذج منها ، ومن هذه الأشعار ذات الدلالات الجغرافية نختار هذه الأبيات التي وصف بها اعرابي الشمس في طلوعها وغروبها :

مخبأة : أما اذا الليل جنها
فتخفى وأما في النهار فتظهر
اذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى
دجى الليل وانجاب الحجاب المستر
والبس عرض الأفق لونا كأنه
على الأفق الغربي ثوب معصفر
عليها دروع الزعفران يشوبه
شعاع تلالا فهو أبيض أصفر
ترى الظل يطوى حين تبدو وتارة
تراه اذا زالت عن الأرض ينشر

فأفنت قرونا ، وهي في ذاك لم تزل
تموت وتحيا كل يوم وتنشر

وقالت العرب في وصف القمر :

المرء مثل هلال حين تبصره
يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزداد حتى اذا ما تم أعقبه
كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

كما حوت كثير من كتب النثر العربي معلومات جغرافية صيغت بأسلوب أدبي رفيع · ويطلق كثير من الباحثين تعبير الجغرافيا اللغوية على بعض الكتابات التي تناولت أسماء الظاهرات المختلفة في الجزيرة العربية ·

وقد ساد نمط من المعلومات الجغرافية التي غلب عليها طابع السجع تتناول محاسن الشعوب والبلاد ومساوئها وتعرف بالفضائل والمثالب · وقد ظهرت « الفضائل » بعد الفتوح الاسلامية حين زادت الرغبة في معرفة أوصاف البلاد وشعوبها · ومن أمثلة ذلك ماأورده النويري (١٢) :

– روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكانها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء · فقال العقل : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك · وقال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك · وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك ·

– وقال محمد بن حبيب : لما خلق الله تعالى الخلق ، خلق معهم عشرة أخلاق : الايمان والحياء ، والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء · فقال الايمان : أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء : وأنا معك · وقالت النجدة : أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك · وقال الكبر : أنا لاحق بالعراق ، فقال النفاق : وأنا معك · وقال الغنى : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك · وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء : وأنا معك ·

– وحكي عن الحجاج أنه قال : لما تبوأت الأشياء منازلها ، قال الطاعون : أنا نازل بالشام ، فقالت الطاعة : وأنا معك · وقال النفاق : أنا نازل بالعراق ، فقالت النعمة : وأنا معك · وقال الشقاء : أنا نازل بالبادية ، فقال الصبر : وأنا معك ·

ومن نماذج الفضائل والمثالب الأخرى : ما روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله تعالى عنهما) أنه قال : ان الله تعالى خلق البركة عشرة أجزاء : فتسعة منها في قريش ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل الكرم عشرة أجزاء : فتسعة منها في العرب وواحد في سائر الناس ·

وجعل الغيرة عشرة أجزاء : فتسعة منها في الأكراد ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل المكر عشرة أجزاء : فتسعة منها في القبط ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل الجفاء عشرة أجزاء : فتسعة منها في البربر ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل النجابة عشرة أجزاء : فتسعة منها في الروم ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل الصناعة عشرة أجزاء : فتسعة منها في الصين ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل الشهوة عشرة أجزاء : فتسعة منها في النساء ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل العمل عشرة أجزاء : فتسعة منها في الأنبياء ، وواحد في سائر الناس ·

وجعل الحسد عشرة أجزاء : فتسعة منها في اليهود ، وواحد في سائر الناس ·

واستمرت الأوصاف من طراز « الفضائل » محتفظة بمكانتها وأهميتها حتى منتصف القرن الثامن الميلادي حيث ظهرت الجغرافيا العلمية عند العرب وظهرت المصنفات الجغرافية الأولى (١٣) ·

وفيما يلي نعرض بعض النماذج من الكتابات الجغرافية لبعض الجغرافيين في القرن الرابع الهجري وهو القرن الذي ازدهرت فيه الجغرافيا العربية ، وقد راعينا أن تكون النماذج متنوعة الأغراض والموضوعات ·

نماذج من كتابات المقدسي (٤) (في الجغرافيا الاقليمية)

للمقدسي مكانة بارزة بين جغرافيي القرن العاشر الميلادي ، وقد ذكر اسبرنجر أن المقدسي أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة (١٥) · وقد ولد المقدسي ببيت المقدس سنة ٣٣٥هـ/٩٤٧م ، وعرف برحلاته الواسعة ونشاطه في محيط الأدب وقد استطاع وضع كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » وهو في سن الأربعين ويعد كتاب « أحسن التقاسيم » أحسن الكتب الجغرافية من حيث محاولة ابراز شخصية أقاليم مملكة الاسلام · وفيما يلي بعض مقتطفات من الكتاب :

ذكر الخصائص في الأقاليم (١٦) :

أظرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب وأحد للذهن وبها تكون النفس أطيب والخاطر أدق ··· وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علما وأجله وبردا المشرق ··· وأجودها البانا وأعسالا وألذ أخبازا وأمكنها زعفرانا الجبال ··· وأكيسها قوما وتجارا وأكثرها فسقا فارس ، وأشدها حرا وقحطا ونخيلا جزيرة العرب ، وأكثرها عبادا وقراء وأموالا ومتجرا وحبوبا مصر ·

ذكر ماعاينت من الأسباب (١٧) :

أعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وان كانت مختلة غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه ، وأقل سبب وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره ، وما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمتها ولا تصنيف فرقة الا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد الا وقد خالطتهم ، ولا مذكرو بلد الا وقد شهدتهم حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب ، ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني ٠٠٠ ومقري وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد ٠٠٠ ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وامام ومؤذن وخطيب وغريب ٠٠ وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها ثم انه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا وقد أخذت منه نصيبا غير الكديه وركوب الكبيرة فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت ، وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر ، وأممت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت الى المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ٠٠ وسحت في البراري ، وتهت في الصحاري ، وصدقت في الورع زمانا وأكلت الحرام عيانا ٠٠٠ وأشرفت مرارا على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبرا وخاطبت السلاطين والوزرا ، وصاحبت الطرق الفساق ، وبعت البضائع في الأسواق ، وسجنت في الحبوس وأخذت على أني جاسوس ٠

اقليم العراق (١٨) :

هذا اقليم الظرفا ، ومنبع العلما ، لطيف الماء عجيب الهواء ، ومختار الخلفاء ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء ، وسفيان سيد القرا ، ومنه كان أبو عبيده والفرا ، وأبو عمر صاحب المقرا ٠٠٠ به مولد ابراهيم الخليل ، واليه رحل كل صحابي جليل ، أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا ، وبغداد الممدوحة في الورى ، والكوفة الجليلة وسامرا ، ونهره من الجنة بلا مرا ، وتمور البصر فلا تنسى ، ومفاخره كثيرة لا تحصى ، وبحر الصين يمس طرفه الأقصى ، والبادية الى جانبه كما ترى والفرات بقربه من حيث جرى ، غير أنه بيت الفتن والغلا وهو في كل يوم الى ورا ومن الجور

والضرائب في جهد بلا ، مع ثمار قليلة ، وفواحش كثيرة ومون ثقيلة . وهذا شكله ومثاله والله أعلم وأحكم .

من النصوص السابقة يتضح لنا أن المقدسي كان مولعا بالسجع وكان يتكلف في صياغته أحيانا ويختار في أحيان أخرى الفاظا صعبة ، حتى لقد قال فيه المستشرقون انه يميل الى التكلف في ايراد السجع الذي يحفل بكثير من الألفاظ النادرة .

نماذج من كتابات المسعودي (١٩) (في الجغرافيا الطبيعية) :

يعد المسعودي من أكثر جرافيي العصور الوسطى اطلاعا وثقافة ، وهو كاتب موسوعي ، عربي الأصل يرتقي نسبه الى الصحابي بن مسعود . والمسعودي (الذي ولد في بغداد في بداية القرن العاشر الميلادي) هو أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر على حد قول واحد من أفضل المتخصصين في هذا الفرع من الأدب في عصرنا (٢٠) .

وقد أطلق عليه فون كريمر لقب « هيرودوتس العرب » .

ذكر الأخبار عن انتقال البحار (٢١) :

ان البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير في مواضع مختلفة ، وأن جملة البحار متحركة ، الا أن تلك الحركة اذا أضيفت الى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبدا يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار اليها ، وانقطاعها عنها ، ولهذه يستحيل موضع البحر وموضع البر فليس موضع البر أبدا برا ولا موضع البحر أبدا بحرا ، بل قد يكون برا حيث كان مرة بحرا ويكون بحرا حيث كان برا ، وعلة ذلك الأنهار وبدؤها وجريها فان لمواضع الأنهار شبابا وهرما وحياة وموتا ونشئا ونشورا ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزءا بعد جزء ، لكنها تشب وتكبر أجزاؤها كلها معا ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد (٢٢) .

وصف مصر (٢٣) :

ووصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب

أحمر ، فأما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في شهر أبيب – وهو تموز – وهو آب – وتوت – وهو أيلول – يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه ، فلاسبيل لبعض البلاد الى بعض الا في الزوارق . وأما المسكة السوداء فان في شهر بابه – وهو تشرين الأول – وهاتور – وهو تشرين الثاني – وكيهك – وهو كانون الأول – ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء ، وفيها تقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك . وأما الزمردة الخضراء ، فانها في شهر طوبه – وهو كانون الثاني – وأمشير وهو شباط – وبرمهات – وهو آذار – تلمع ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء ، وأما السبيكة الحمراء فان في شهر برمودة – وهو نيسان وبشنس – وهو أيار – وبؤونه – وهو حزيران – يبيض الزرع ، ويتورد العشب ، فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة .

نماذج من كتابات ابن جبير (٢٤) (في جغرافية الرحلات) :

على الرغم من أن ابن جبير كان شاعرا وكاتبا الا ان شهرته تدين بوجودها للوصف الأدبي لرحلته المعروفة برحلة ابن جبير أو رحلة الكناني نسبة الى القبيلة التي ينتسب اليها . وقد أفاد الجغرافيون والمؤرخون من وصفه كثيرا . وتعد رحلة ابن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي (٢٥) .

ان كتاب (رحلة ابن جبير) يتميز بأسلوبه الرفيع واعتماده على السجع دون مبالغة وهو نتاج ثلاث رحلات قام بها ابن جبير أهمها الرحلة التي استمرت أكثر من ثلاثة أعوام ، وقد بدأها ابن جبير يوم الاثنين التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨هـ (١١٨٣م) ، وختمها في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٥٨١هـ (ابريل سنة ١١٨٥م) .

نماذج من وصف ابن جبير :

أهوال البحر (٢٦) :

وفي ليلة الأربعاء ... من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة ، كأنه شآبيب (٢٧) سهام . فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة . فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ منا مبلغه ، وارتجينا مع

الصباح فرجة ··· تخفف عنا بعض مانزل بنا ، فجاء النهار ، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة ، بما هو أشد هولا وأعظم كربا ، وزاد البحر اهتياجا وأربدت الآفاق سوادا ، واستشرت الريح والمطر عصوفا ، حتى لم يثبت معها شراع · فلجيء الى استعمال الشرع الصغار · فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها ، وهي المعروفة عندهم بالقرية · فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء الى الله عز وجل ·

وفي مكان آخر من الكتاب يذكر ابن جبير وصفا للرياح العاصفة الغربية فيقول (٢٨) : وفي النصف من ليلة الأحد الحادي عشر (٢٩) منه انقلبت الريح غربية ، وكشف النوء من الغرب ، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال · وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب · فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه ، واستشرى عصوف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدلالين الصغار دون أنصاف الصواري · ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا انا قد أحيط بنا ، فيالها ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة في ليالي الشوائب ، مقدمة في تعداد الحوادث والنوائب ·

وصف مكة (٣٠) :

هي بلدة قد وصفها الله عز وجل بين جبال محدقة بها ، وهي بطن واد مقدس كبير مستطيلة تسع من الخلائق مالا يحصيه الا الله عز وجل · ولها ثلاثة أبواب : أولها باب المعلى ، ومنه يخرج الى الجبانة المباركة ، وهي بالمواضع الذي يعرف بالحجون · وعن يسار المار اليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج ، يخرج منها الى طريق العمره ، وتلك الثنية تعرف بكداء وهي التي عنى حسان بقوله في شعره:

تثير النقع موعدها كداء

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يوم الفتح : ادخلوا من حيث قال حسان فدخلوا من تلك الثنية وهذا الموضع الذف يعرف بالحجون ····· ثم باب المسفل : وهو الى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول

خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح . ثم باب الزاهر : ويعرف أيضا بباب العمرة ، وهو غربي ، وعليه طريق مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وطريق الشام وطريق جده ، ومنه يتوجه الى التنعيم ، وهو أقرب ميقات المعتمرين ، يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك أيضا يسمى هو بهذا الاسم .

والتنعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق فسيح ، فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة .

وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذي قعد فيه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مستريحا عند مجيئه من العمرة فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه ، وحق ذلك لهم ، ويستندون اليه لتنال أجسامهم بركة لمسه . ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة (٣١) تلقى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة ، قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام ، يقال انهما قبرا أبي لهب وامرأته ، لعنهما الله ، فمازال الناس في القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان .

وصف لسكان الشام (٣٢) :

ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحاج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن أغرب ما حدثناه من ذلك : أن الحاج الدمشقي مع من أنضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق من هذا العام ، الذي هو عام ثمانين (٣٣) ، خرج الناس لتلقيهم : الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا اليهم الأطعمة . فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له ودفعن له عوضا منه دراهم ... ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الالماع بلمحة دالة يكتفي بها عن التطويل . وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم أن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ...

نموذج من كتابات الدمشقي :

ولد الدمشقي سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) ومال الى العلوم الدينية ، وأمضى حياته اماما بمسجد الربوة بدمشق حتى لقب بشيخ الربوة ولقب كذلك بالصوفي لميوله التصوفية · وتوفى الدمشقي سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) بعد أن اعتزل الحياة العامة في آخر سنوات حياته وعاش زاهدا ، ولعل أشهر مؤلفات الدمشقي هو كتابه الجغرافي « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ·

ذكر خصائص النوع الانساني (٣٤) :

تناول الدمشقي الانسان فوصفه على أنه صفوة العالم وزبدة الكون ومركز أشعة المحيطات والاحاطات والجامع لمتفرق ما في الأرض والسماوات · وهو يجمع خصائص الأقاليم السبعة والبحار وخصائص البلاد وهو الخليفة الممكن في الأرض والمكلف لأداء الغرض · وكان من خصائصه أن الله تعالى جمع فيه قوى العالمين وأهله لسكن الدارين فهو كالحيوان في الشهوة والغذاء لعمارة الأرض ، وهو كالملائكة في العلم والعبادة والاهتداء ·· والحكمة الالهية في تخليقه أظهر مما في سائر المخلوقات لأنه أعنى الانسان من ضدين متباينين وجوهرين متباعدين أحدهما لطيف روح سماوي علوي نوري محيط حي دارك ، والآخر كثيف جسد أرضي سفلي ظلماني ميت غير حساس ولذلك سمي انسان تثنية انس ··· وركب الله بدن الانسان من المني والدم وغذاءه بالطعام والشراب وأظهره من الأب والأم وأخرجه قبل التركيب من الصلب والترائب (بينهما أضداد كلهما ضدان ضدان) ··· ملكه الله الأرض بما فيها فقسم له الحيوان ثلاثة أقسام : قسم يأكله ، وقسم يستعمله ، وقسم يقتله · فالأول كالغنم والمعز والثاني كالخيل والبقر ، والثالث كالأسد والحية · ثم شق الأرض وأجرى الأنهار وغرس الأشجار ··· ولم يبق في بر الأرض وبحرها بقعة الا ملكها وتصرف فيها ··· واستخرج ذلك من النبات والحيوان والمعدن ، فالمعدن كالحديد وما منه والنبات كسائر الهراوات وقبلها والحيوان كالجلود والعظام والأوتار والأسواط ·

ومن تخصيص صورة الانسان أن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم منتصب القامة ···· معرى البشرة من الوبر ، وجعل عقله في دماغه ··· وغضبه في كبده ، وسروره في كليته ، وضحكه في طحاله ··· وفرحه وحزنه في وجهه فهو حي ناطق ضاحك دون غيره ··· وجعل له في يده من المنافع ما اذا بسط كفه كان طبقا لما يحمله عليه واذا قعره كان مغرفة ووعاء وان ضم الكفين

وقعرهما كانا قعبا وان شبك أصابعه بقوة كانت سلاحا .... ومن خصائص الانسان تمييزه بالعقل للنظر في الأمور النافعة لتجلب والضارة لتجتنب ومعرفته بأحوال نفسه وأحوال من سواه وببعض ما هو في الغيب من الحوادث الكونية قبل حدوثها كالفصول السنوية .

ومن خصائص الانسان اتصافه بسائر أوصاف الحيوان وأوصاف الملائكة ، كما قلنا مجملا فهو جرىء كالأسد جبان كالأرنب سريع كالغزال بطىء كالدب ذليل كالكلب عزيز كالفهد وحشي كالنمر أنسي كالحمار ذو مرح كالفرس وعجب كالطاووس ومحاكاة كالقرد وتحرز كالجاموس ودناوة وشهوة كالخنزير وحقد كالجمل ورقة نفس وطرب كالطير وعلى الجملة ففيه من كل حيوان خلق أو خلقان أو أكثر . ولما كان كذلك كان هو صفوة جنس الحيوان وخلاصته بهذا النظر وظهر ذلك عليه وبطن كالملق الذي في طباع الكلب والخداع الذي في طباع القط والخيلاء الذي في الفرس والزهو في الطاؤوس . فالانسان مع كونه شخصا واحدا يصدق عليه أنه ملكاني نوراني بالفضائل وأنه شيطان ظلماني بالرزائل كامل مرة وناقص مرة فاذا صار في الكمال كان جالسا مع الملائكة في حضرة رب العالمين معتكفا على بابه مواظبا على ذكره متوكلا على رحمته ، واذا صار في النقصان ومقام الشهوة والغضب فهو اما أن يكون كالكلب العقور والجمل الصؤول أو كالنار المحرقة والمياه المغرقة او يكون كخنزير أجيع ثم أرسل الى النجاسات . ومن خصائصه أيضا أنه يصور كل شيء بيده ويحكي كل صوت بفيه ينهش اللحم كالسبع ويأكل البقول كما تأكله البهائم ويلقط الحب كما يلقطه الطير . ومن خصائصه أنه قائم في الهواء منتصب كالأشجار راكع كالبهائم ساجد كالحيتان والحيات ، جالس راكن كالجبال رأسه كالفلك وروحه كالشمس وعقله كالقمر وحواسه كالسيارة ودموعه كالمطر وصوته كالرعد وضحكه كالبرق وظاهره كالبر وباطنه كالبحر ولحمه كالأرض وعظامه كالجبال وشعره كالنبات وجسده كالأقاليم وعروقه كالأنهار وهو هدف الأغراض ولكل شيء فيه نصيب ومن كل شيء عنده خلة وله الى كل شيء مسلك وبينه وبين كل شيء نسبة ومشاكله يحكي الفلك رأسه بظاهره وباطنه فالظاهر منه عيناه كالشمس والقمر وأذناه كزحل ومنخراه كالمريخ وفمه كالمشتري ولسانه كعطارد وربما تتنزل أذناه بالمريخ (وزحل) وعيناه بالشمس والقمر ومنخراه بالزهرة وعطارد فسبحان من سواه وعدله وكرمه وفضله فالانسان الكامل خليفة الرحمن وزبدة الأكوان والقابل من المحسن أنواع الاحسان والمتصرف في الأزمان والمعلم القرآن والبيان والمراسل بالتوراة والانجيل والزبور والفرقان . فان تزكى فيا بشراه من بشر – وان تدسى

فقل يازلة القدم . ومامن صورة من صور العالم بأسره الا وفيها معنى من معاني الانسان فهو صورة الصور وهو معنى المعاني وهو المركز المحيط وهو الأول والثاني فالعالم صورته وجسده وهو روح العالم وحياته .

نموذج من كتابات ياقوت الحموي (المعاجم الجغرافية) :

يرى ياقوت أن المعرفة الجغرافية ضرورة هامة ، وأن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها أمر لا يستغنى عنه أولو البصائر ويقول في ذلك :

« ثم قلما رايت الكتب المتقنة الخط ، المحتاط لها بالضبط والنقط ، الا وأسماء البقاع فيها مهملة أو محرفة ، وعن محجة الصواب منعطفة أو منحرفة ، قد أهمله كاتبه جهلا ، وصوره على التوهم نقلا .

وكم امام جليل ، ووجه من الأعيان نبيل ، وأمير كبير ، ووزير خطير ، ينسب الى مكان مجهول ، فتراه عند ترجيم الظنون على كل محتمل محمول ، فان سئل عنه أهل المعارف أخذوا بالنصف الأرذل من العلم ، وهو لا أدري . ويئست الخطة للرجل الفاضل ، فان التمس لذلك مظنة ، أعضل ، أو أريغ له مطلب ، أعوز وأشكل ، لاغفالهم هذا الفن من العلم الخطير مع جلالته ، واعراضهم عن هذا المقصد الكبير مع فخامته . ومن ذا الذي يستغنى من أولي البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها ، وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس في الافتقار الى علمها سواسية ، وسر دورانها على الألسن في المحافل علانية ، لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ، ومعالم للصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ومشاهد للأولياء والصالحين ، ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين ، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين .

ولا يسع الفقهاء جهلها ، ولا يعذر الأئمة والأمراء اذا فاتهم في طريق العلم حزنها وسهلها ، لأنها من لوازم فتيا الدين ، وضوابط قواعد الاسلام والمسلمين .

فأما أهل السير والأخبار ، والحديث والتواريخ والآثار ، فحاجتهم الى معرفتها أمس من حاجة الرياض الى القطار ، غب اخلاف الأنواء ، والمشفى الى العافية بعد يأس من الشفاء ، لأنه معتمد علمهم الذي قل أن تخلو منه صفحة ، بل وجهة ، بل سطر من كتبهم .

بأجأ ، فقتلوه فيه ، فسمى به . وأنفوا أن يرجعوا الى قومهم ، فسار كل واحد الى مكان فأقام به فسمى ذلك المكان باسمه ، قال عبيد الله الفقير اليه : وهذا أحد ما استدللنا به على بطلان ما ذكره النحويون من أن أجأ مؤنثة غير مصروفة ، لأنه جبل مذكر ، سمى باسم رجل ، وهو مذكر . وكأن غاية ماالتزموا به قول امرىء القيس :

أبت أجأ تسلم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

وهذا لا حجة لهم فيه ، لأن الجبل بنفسه لا يسلم أحدا ، انما يمنع من فيه من الرجال . فالمراد : أبت قبائل أجأ ، أو سكان أجأ ، وما أشبهه ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، يدل على ذلك عجز البيت ، وهو قوله :

فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

والجبل نفسه لا يقاتل ، والمقاتلة مفاعلة ولا تكون من واحد .

نماذج من الأدب الجغرافي العربي المعاصر (٣٦)

نموذج من كتابات « محمد عوض محمد » :

سكان هذا الكوكب :

أصبح الانسان وقد اتخذ من الأرض كلها دارا . ومن كل اقليم وطنا . ويوشك ألا يكون في الكائنات جميعا : حيوانها أو نباتها ما هو أوسع انتشارا ، وأكثر ضربا في مناكب الأرض من الانسان . سكن الجبال على وعورتها وشدتها واستوطن الصحراء على قلة نبتها ومائها . واستطاع أن يعيش وسط الغابات الكثيفة وتحت الشمس المحرقة ، وأن يتخذ حتى من المستنقعات وطنا يعيش فيه ، ولم يرتد حتى عن الأقطار القطبية ذات الزمهرير القارص والظلام الدامس ، والشتاء الذي يبعث الرعب في القلوب . لم ينثن الانسان أمام هذا كله . بل استطاع أن يتخذ لنفسه في كل اقليم دارا ، وأن يجعل من كل بيئة وطنا (٣٧) .

الوطن الثاني ، ونشوء الأجناس (٣٨) :

الأسئلة التي تتهافت على المرء حين يفكر في الانسان : اي حين يفكر في أمر نفسه ، أسئلة عديدة عويصة عميقة قد أحاطت بها ظلمات لايشوبها قبس واحد من النور .

وأما أهل الحكمة والتفهيم ، والتطبب والتنجيم ، فلا تقصر حاجتهم الى معرفته عمن قدمنا ، فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها ، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ، اذ كانوا لا يحكمون على البلاد الا بطوالعها ، ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها ، ومن كمال المتطبب أن يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها ، وصحة أو سقم منبتها ومائها ، وصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية ، وكشفهم عن حقائق فلسفية ، ولذلك صنف كثير من القدماء كتبا سموها جغرافيا ، ومعناها صورة الأرض ، والف آخرون كتبا في أمزجة البلدان وأهوائها ، نحو جالينوس ، وقبله بقراط وغيرهما ·

وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم اليها ، لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه ، وشواهد النحوي ودعائمه ، ومعتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها ·

ويهتم ياقوت الحموي بضبط أسماء الأماكن ومحاولة تفسيرها والاشارة الى ما يتعلق بها من أحداث وسرد بعض الأبيات الشعرية التي يرد فيها أسماء هذه الأماكن ومن أمثلة ذلك ماورد في ص ٩٤ بشأن جبل أجا · قال ياقوت الحموي :

أجا :

بوزن فعل ، بالتحريك ، مهموز مقصور ، والنسب اليه أجئي بوزن أجعى : وهو علم مرتجل لاسم رجل سمى الجبل به ، كما نذكره ، ويجوز أن يكون منقولا · ومعناه الفرار ، كما حكاه ابن الاعرابي ، يقال : أجأ الرجل اذا فر ، وقال الزمخشري : أجا وسلمى جبلان عن يسار سميراء ، وقد رأيتهما ، شاهقان ····

وذكر العلماء بأخبار العرب أن أجأ سمي باسم رجل وسمي سلمى باسم امرأة · وكان من خبرهما أن رجلا من العماليق يقال له أجأ بن عبد الحي ، عشق امرأة من قومه ، يقال لها سلمى · وكانت لها حاضنة يقال لها العوجاء · وكانا يجتمعان في منزلها حتى نذر بهما اخوة سلمى ، وهم الغميم والمضل وفدك وفائد والحدثان وزوجها · فخافت سلمى وهربت هي وأجأ والعوجاء ، وتبعهم زوجها واخوتها فلحقوا سلمى على الجبل المسمى سلمى ، فقتلوها هناك ، فسمي الجبل باسمها · ولحقوا العوجاء على هضبة بين الجبلين ، فقتلوها هناك ، فسمي المكان بها · ولحقوا أجا بالجبل المسمى

الانسان ·· متى نشأ ؟ ·· وكيف نشأ ؟ هل وجد فجأة ما بين يوم وليلة بحيث غربت الشمس وليس على الأرض انسان ، ثم طلعت واذا الأرض فيها هذا الكائن العجيب ؟ أم كان نشوءه تدريجيا متسلسلا حلقة بعد حلقة على مدى آلاف السنين ؟ ثم في أية صورة كان هذا الانسان ؟ ··

هذه الأسئلة وغيرها مما يخطر لكل مفكر أسئلة عويصة ، وقد أشارت الديانات أيضا الى بعض هذه الأسئلة ، ولم يكن بد أن تشير اليها ، أما البحث العلمي فقد تهيبها طويلا ، حتى نشأ علم الأنثروبولوجيا الحديث ، فجعل يخوض فيها ، ويدلي بأراء وافتراضات · وجاءت جماعات من المرجفين الذين ليسوا من العلم ولا من الدين في شيء كثير ، فأثاروا الفتن بين الاثنين ··

وليس من الاسراف في شيء أن يقال ان العلم لم ينته في هذه المسائل الى أمور قاطعة · بل ولا احتمالات راجحة يسهل السكون اليها ، ولعل أكبر خدمة أداها العلم الى الآن هي أن أظهر هذه المسائل وأبرزها بحيث أصبحنا نعرف ما الذي نبحث عنه لعلنا نجده ·

انتشار السكان ونموهم (٣٩) :

أما النوع البشري ·· فلم يستقر في اقليم واحد ، ولم يعتكف في بيئة واحدة ، وله مقدرة هائلة على الاحتيال للبيئات : يلبس لكل بيئة لبوسها ، ويلائم قدر الطاقة بين حياته وبين مقتضيات الاقليم الذي اختاره سكنا ووطنا · فتراه في الأقطار النائية القطبية ، التي لا يكاد ينجاب عنها الجليد سوى أشهر قلائل من كل عام ، تراه وقد التمس الحياة فيها ، واستطاع أن يجد بها بغيته ، وتسنى له أن يتخذها موطنا دائما · ونراه تحت هجير الشمس المتقد وسط الصحراء المجدبة ، قد استطاع أن يجوب أطرافها ويخترق فيافيها ، بل ويصيب فيها طعاما ومسكنا ، وهو هنالك راض بعيش البادية لا يريد منها بديلا ···

لقد ولع هذا الكائن منذ نشأته بالحركة والتجوال ، فاتخذ الأرض كلها دارا يجوب أطرافها ، ويعبر بحارها ويجتاز جبالها ، ويطوي سهلها وحزنها · فلم يبق من اليابس جزء لم يستعمره اللهم الا الأطراف القطبية ، التي لا يزورها الا مرتادا أو مستكشفا أو مجازفا ، وفيما عداها نرى النوع البشري قد استوطن الأقاليم جميعا ·

على أن الانسان لم يقبل على سكنى جميع الأقطار بدرجة واحدة ، بل انه دخل بعض الأقطار مكرها وأقام بها كارها ، وفي بعضها قد وجد الرزق ميسورا والعيش رغدا ، فطاب له أن يقيم بها وأن يعمرها . ولم يلبث حتى تزايد فيها عدده واحتشدت بها جموعه ، حتى لتضيق بها البلاد على رحبها .

فالنوع البشري موزع على سطح الأرض توزيعا غير مطرد ولا منتظم ، فهنالك أقطار تغص بمن فيها ، لم يبق فيها موضع لساكن جديد ، وأقطار سكانها مبعثرون في أرجائها ، أكثرها خلاء من الناس ، وهنالك أقطار وسط هذا وذاك ، أهلها لا يشكون الكثرة ولا القلة .

نموذج من كتابات عزة النص (٤٠) :

المزاج الطبيعي لمنطقة نجد :

تحدث عزة النص عن نجد فقال :

عجيب شأن هذه الرقعة من أرض العرب ، عجيب شأنها في تاريخها المتقادم ، المتألق حينا والدامس حينا آخر ، والمتأرجح ذوما بين أوج وحضيض ، بين منعة وتهالك ، وبين أمن وعافية وهناءة عيش ، أو اقتتال وفوضى وجوع ووباء .

وعجيب شأنها أيضا في مزاجها الجغرافي القلب : يشتد بردها تارة حتى « ليجمد المطر على أهداب عيون الابل » ويتلظى حرها تارة أخرى حتى تكاد تزهق الأنفس من سعيره .

قد ينحبس الغيث سنوات متواليات ، وتتكشف السماء الزمن الأطول عن زرقة رتيبة الا من سحائب كالقطن متراخيات . حشد من ضوء وغبار يثبت ويدوم ويستمر ماشاء الله له أن يستمر . وذات يوم تنعقد الغيوم وتنفتح أبواب السماء ، بعد طول ترقب ، وتسقط على الأرض الظمأى ما يضرب عاليها ويغمر سافلها ، وكأن البحر كله قد هبط عليها من عل .

في أيام الناس هذه ، لقد انفصم الارتباط الوثيق ، أو كاد ، بين طبيعة هذه المنطقة وانسانها ، بمعنى انه اضحى أكثر قدرة على مغالبتها وسد نقصها ودرء غوائلها ، وتدارك حاجاته من مناطق أخرى قاصية أو دانية ، بفضل دخل النفط وتنظيم الحكم والادارة ونشر التعليم . وقبل

أقل من نصف قرن كان الحضر هنا والبدو يتمتعون بالرفه والخيرات حين تغدق السماء وتخرج من تراب الأرض غذاء الآدميين والعجماوات ، فاذا شح المطر غارت الآبار ويبس النبت وهلك كل كائن عدا من نزح الى قطر آخر ٠

ومع هذه المهلكات المتناقضات : الحر والبرد والقحط والغرق كانت تحل آفات أخرى ليست أقل غائلة ولا أهون شرا ٠ من ذلك :

البرد والريح ، يقول ابن بشر : وفي سنة اثنتين ومائة والف أنزل الله بردا بفتح الراء وأذهب زروع ملهم (شرق حريملا) ، وهبت ريح شديدة تكسر منها نخيل كثير من البلدان ٠٠ وفيها أنزل الله سيلا وسميا أغرق منزلتهم وهدم البيوت والمساجد ، وأوقع الله بردا بسكون الراء أهلك من الزرع ماكان في سنبله ، ثم أنزل الله في الصيف غيثا أعظم من الأول ٠٠

ومن ذلك أيضا الجراد والدبا ٠ وقد سجل مؤرخو نجد فواجعها ولا نتعرض هنا لشر البلايا وهي تلك الوافدات الوبائية المتكررة ٠

ومن حصيلة هذا المزاج فيما غبر من الأيام ذلك التيار المتواصل من الهجرات المتدافعة التي اندفعت من قلب الجزيرة نحو ماسمي بالهلال الخصيب ، نعني هجرات الأقوام ذات اللغات السامية ٠ وفي تواريخ نجد المعروفة ذكر للحركات الجماعية التي خرجت من اليمامة والقصيم وسدير وغيرها الى جهة البصرة والزبير في القرون الثلاثة الأخيرة ، حتى لكان الاقليمين يتمم كل منهما الآخر ، والى الآن تربط مابين أهلها صلات وشيجة من النسب والقربى ٠ هذا ومن المعروف أن آخر هجرة كثيفة لقبائل شمر وعنزة الى العراق والشام لا ترجع الى أبعد من القرن الثامن عشر الميلادي ٠

وقد أشار عزة النص الى أن ياقوت الحموي ذكر أن الشعراء لم يذكروا موضعا اكثر مما ذكروا نجدا وعرض نماذج مختارة من اشعار نجدية فيها اكثر من دلالة جغرافية ومنها : ـ

اقول لصاحبي والعيش تهوى   بنا بين المنيفة فالضمار

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد   وريا روضة غب القطار

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجدا على وجد

رأيت بروقا داعيات الى الهوى   فبشرت نفسي أن نجدا أشيمها
اذا ذكر الأوطان عندي ذكرته   وبشرت نفسي أن نجدا أقيمها
ألا حبذا نجد ومجرى جنوبه   اذا كان من برد العشى نسيمها
أكر طرفي نحو نجد وانني   اليه وان لم يدرك الطرف أنظر
حنينا الى أرض كأن ترابها   اذا أمطرت عود ومسك وعنبر
ألا هل لمحزون ببغداد نازح   اذا ما بكى جهد البكاء مجيب
كأني ببغداد وان كنت آمنا   طريد دم نائي المحل غريب
فيالائمي في حب نجد وأهله   أصابك بالأمر المهم مصيب
خليلي هل بالشام عين حزينة   تبكي على نجد لعلي أعينها
خليلي ان حانت بحمص منيتي   فلا تدفناني وارفعاني الى نجد
فذا العرش لاتجعل ببغداد ميتتي   ولكن بنجد حبذا بلدا نجد
نسيم الخزامي والرياح التى جرت   بليل على نجد يذكرني نجدا

نموذج من كتابات محمد محمود الصياد (٤١) :

سيد الأنهار : (مقال في جغرافية نهر النيل) (٤٢) :

غير بعيد من خط الاستواء وفي وسط افريقية السوداء يولد النيل العظيم : تلده أم وقور ، ما كانت تظن حين جاءها المخاض أن سيكون لوليدها شأن ، وأنه سيصنع التاريخ ، ومادار في خلدها أن ابنها سيكون خير أنهار الدنيا وسيدها جميعا ، وأنه سيخلق حضارة تزداد جلالا مع الأيام ، وسيعرف له قومه ما أفاء عليهم من خير فاذا بهم يؤمنون بعظمته ، ويقدسون اسمه ، فلا يذكرونه الا وحوله هالة من الاجلال والتقديس ، وحق له أن يجلوه فما عرفوا منه الا الروعة التي تخلب العقول ، والعظمة التي ليس وراءها عظمة ، وخليق بهم أن يحتفلوا به فما كان مذ جرى في ديارهم الا الوفي المسماح ٠

تباركت يارب ! وحمدا لك يانيل ٠

تباركت يارب ، ما أكرمك وما أعظم آلاءك ٠

أردت لمصر الخلود فأجريت لها من أقصى الأرض الكوثر الفياض .
وحمدا لك يانيل ، ما أنبلك وما أوفاك ! قطعت المسافات الطوال
لتجعل من مصر جنة وارفة الظلال . تباركت يارب ، وشكرا لك يا أم النيل !

انجبت فاكرم بالمنجبة والنجيب .

ولكنهم ظلموك في المشيب ، فأطلقوا عليك اسما لا تمتين له برحم !

لقد نسبوك - سامحهم الله - الى فيكتوريا وأنت منهم بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب . الا ما أجمل اسمك القديم « بحيرة أوكروى » الذي عرفت به منذ أن عاش على ضفافك انسان ، ولكنك ذات الأصالة والمجد مهما تغيرت الأسماء .

يا ابنة هضبة البحيرات لنرجع الى الوراء ملايين السنين لنقرأ سفر تاريخك المجيد ، لقد زلزلت أرض افريقيا في عهد سحيق فانشقت عن أخدود عظيم امتد شمالا حتى وصل الى أرض فلسطين . وتكونت فيه بحيرات هن لك أخوات غير شقيقات ، وتدفقت على جوانبه حمم البراكين فتراكمت جبال شامخات ، تسهر على رعايتك أنت وأخواتك بلا سأم ولا كلال . وكنت مكان القلادة من العقد فتفرع على جانبيك الأخدود ، وامتد فرعه الشرقي ليكون فيه حوض البحر الأحمر وخليج العقبة والبحر الميت وغور فلسطين ، وامتد فرعه الغربي ليكون فيه شقيقاتك ادوارد وألبرت وبنات عمومة أخريات (ص ١٧) .

من الساحل الشمالي لبحيرة فيكتوريا يخرج النيل الوليد بغير صخب ولا ضوضاء ، ولكنه سرعان ما يعلو هدره وضجيجه ، وهذه هي دائما طبيعة الأطفال ، لقد صفعه حاجز من صخور الديوريت أثار فيه كامن الحياة ، فاذا به يركل الحاجز بقدميه حتى يشق فيه فتحات ثلاثا يهوى منها الى مجرى ضيق عميق أنها شلالات ريبون التي تقع الى الشمال من جنجا غير بعيد من بداية الطريق الطويل الذي يستعد النهر لسلوكه ، ويسرع النهر في سيره بعد أن حددت له معالم الطريق ضفاف من الصخر عالية تكتنفها الغابات ذات الأشجار الضخمة الدائمة الاخضرار وقد خيم عليها صمت رهيب ، ويمضي النهر الطفل يرغى ويزبد سعيدا بالحياة ، ويسقط من شلالات أوين ، وعندها يتلقى الدرس الأول في تهذيب السلوك ، فقد أقيم عليه وهو لايزال في أول حياته سد عظيم تم انشاؤه في عام ١٩٥٤م ليوفر الكهرباء لأوغندا ويخزن المياه لمصر (ص ٢٦) .

نموذج من كتابات جمال حمدان (٤٣) :

الوظيفة التجارية للمدن (٤٤) :

في كل العصور وفي ظل كل اقتصاد ، وجد الانتاج نفسه اما متوجا بفائض واما مثقلا بعجز وذلك بدرجة قلت وكثرت وفي الحالين لزم التبادل ، لأنه مادامت المنفعة الحدية Marginal Utility لأي سلعة تتناسب طرديا لا معها في حد ذاتها ولكن مع الحاجة اليها ، كان في التبادل فائدة متبادلة · على أن هذا التبادل استلزم بدوره عملية نقل طالت أو قصرت ، واستدعى نقطة مركزية كبرت أو صغرت يتم فيها ، أي التجمع المدني · وبذلك تتكون لدينا المعادلة الآتية : فائض + حاجة نقل = تجارة = مدينة ·

من هنا فالتجارة تبدو مرتبطة بالمدن ارتباطا طاغيا جعل البعض يخصصها في التعريف بالمدينة كما رأينا ·

ومن الكتاب من لا يرى تفسيرا للمدينة التاريخية الا في الوظيفة التجارية « يبرين » ·

وقد كان للأسواق ــ ومن أكثرها نشاطا وحيوية أسواق الحيوان Foire مواعيد معينة دورية · وحالما تنتهي السوق ، تختفي كل أنواع الحياة والاضطراب وينزلق المركز الصغير ليسترد كيانه القروي الذي يتركه مرة كل أسبوع ليصبح مدينة صغيرة · وأحيانا كانت السوق تستمر طوال الأسبوع على هوامش القرية وتفيد منها افادة محدودة · فهذه الأسواق كانت اذن مدنا متقطعة ، ولكنها تعد نفسها طيلة الأسبوع ليوم السوق · (جغرافية المدن ص ٤٧) ·

وقد تحدث جمال حمدان عن الوظيفة الصحية والترفيهية للمدن فقال : ــ « قد يبدو غريبا الجمع بين هاتين الوظيفتين المتناقضتين ، فهما وظيفتا المرضى والأصحاء ··· ثم هما تشتركان في أنهما أساسا من وظائف البطالة ــ اذا جاز أن يكون للبطالة وظيفة ــ فالوظيفتان تخدمان حاجة سلبية وعناصر خاملة وان يكن مؤقتا ، سواء مرضى لا يعملون او أصحاء ينشدون الراحة والترفيه » · (جغرافية المدن ص ١٥٧) ·

وبعد فقد كانت هذه السطور في صحبة أدبنا الجغرافي ، عدنا خلالها الى تراثنا الجغرافي نلتمس فيه الأسلوب الأصيل الجيد واللغة الصحيحة ·

ولقد أشرنا الى ما انحدرت اليه بعض الكتابات الجغرافية المعاصرة من حيث أسلوبها ولغتها ولا حاجة بنا الى عرض نماذج توضح ذلك لأن هذا أمر معروف لكل من قرأ قليلا في كتب الجغرافيا المعاصرة . على أن الأمر لا يخلو من وجود كتابات جغرافية معاصرة ذات أسلوب رفيع ولغة جيدة أصيلة وقد اكتفينا باختيار بعض النماذج التي استثنناها وهي قليل من كثير .

ومطمعنا فيما عرضناه كله أن نسمو بطريقة الكتابة في الجغرافيا المعاصرة ، وأن ندرأ عنها العجمة وأن نصونها من تبعية التقليد .

اننا لا ننادي بالعزلة الجغرافية فالعلم لا وطن له ، وانما ننادي بكتابات جغرافية عربية الأسلوب عربية المنهج تعتمد على كل جديد في الجغرافيا مهما كان مصدره وأينما كان موطنه ، لكنها لا تنسى أسلوبها العربي وشخصيتها المتميزة ،تأخذ بعد أن تنتقي ، وتختار بعد أن تستوعب وتقتنع .

الهوامش

١ ـ من امثلة ذلك ، كتاب تاريخ الأدب الجغرافي العربي لاغناطيوس كراتشكوفسكي .

٢ ـ البحث عن أصل الكلمات اتجاه عربي أصيل وربما يرجع ذلك الى اهتمام العرب لمعرفة الأنساب وانتقل ذلك الى بحوثهم .

٣ ـ كارلوو نالينو ، تاريخ الآداب العربية ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠م ، ص ٢٤ .

٤ ـ السيد المرتضي الحسيني الزبيدي ، تاج العروس ، جـ ١ ، ص ١٤٤ .

٥ ـ عبد القادر البغدادي ، خزانة الأدب ، بولاق سنة ١٢٩٩هـ ، جـ ٤ ، ص ١٢٤ .

٦ ـ نالينو ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

٧ ـ الوزير المشهور المتوفي سنة ٢٣٦هـ ، في زهرة الآداب وثمرة الألباب للحصري .

٨ ـ ياقوت الحموي ، ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، جـ١ مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٣٦هـ نقلا عن طبعة لندن سنة ١٩٠٧م ، ص ٧٣ .

٩ ـ لويس شيخو اليسوعي ، علم الأدب ، جـ ١ ، بيروت سنة ١٩٢٣م ، ص ٣ .

١٠ ـ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، سنة ١٩٦٧م ، ص ٢ .

١١ ـ محمد محمود محمدين ، مناخ نجد بين انواء العرب واسجاعهم ، مقال بمجلة كلية التربية ، دراسات ، نوفمبر سنة ١٩٧٨م ، ص ص ٢٥٧ ـ ٢٧٤ .

١٢ ـ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، عام ١٣٤٢هـ ، جـ ١ ، ص ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ .

١٣ ـ كراتشكو فسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القاهرة سنة ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

١٤ ـ هو ابو عبد الله محمد بن احمد المقدسي وقد رأى فيه كرامرس اكثر الجغرافيين العرب أصاله وفي مصنفه واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة .

١٥ ـ كراتشكوفسكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٩ .

١٦ ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مكتبة خياط بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

١٧ ـ احسن التقاسيم ، ص ٤٣ .

١٨ – احسن التقاسيم ، ص ١١٢ •

١٦ – ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت ، سنة ١٣٨٥هـ •

٢٠ – كراتشكوفسكي ، مصدر سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ١٧٧ •

٢١ – مروج الذهب ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٢ •

٢٢ – ان هذا التشبيه الذي صاغه المسعودي بالنسبة لمواضع الأنهار في القرن العاشر الميلادي ، توصل الى فكرته الجغرافي الامريكي وليم موريس ديفز فيما يعرف باسم « مراحل حياة النهر » W. Morris Davis (1850 - 1934). أي أن المسعودي سبق ديفز في ذلك بتسعة قرون على الأقل •

٢٣ – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧٤ – ٣٧٥ •

٢٤ – ولد ابن جبير سنة ٥٤٠هـ (١١٢٥م) في بلنسيه وعمل مدة كبيرة كاتبا لحاكم غرناطة •

٢٥ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، جـ ١ ، ص ٣٠١ •

٢٦ – ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار التراث ، بيروت ، سنة ١٣٨٨هـ ، ص ١٠ •

٢٧ – الشآبيب : مفردها شؤبوب ، الدفعة من المطر •

٢٨ – رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٠ •

٢٩ – الحادي عشر من شهر شعبان سنة ٥٨٠هـ ، الموافق ١٨ نوفمبر •

٣٠ – رحلة ابن جبير ، ص ص ٧٧ – ٧٨ •

٣١ – غلوة : مسافة رمية سهم •

٣٢ – رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ، (تحت عنوان من عجيب امر المشارقة) •

٣٣ – سنة ٥٨٠هـ •

٣٤ – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ببغداد ، بدون سنة طبع ، ص ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ •

٣٥ – أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس ، أسر صغيرا من بلاده واشتراه تاجر من بغداد يعرف بعسكر الحموي حمل ياقوت منه هذا الاسم (الحموي) • وقرأ ياقوت شيئا من النحو واللغة ، وقد أعتقه مولاه عام ٥٩٦هـ فاشتغل بالنسخ بالأجرة وقد وضع ياقوت معجمه « معجم البلدان » في الربع الأول من القرن السابع الهجري •

٣٦ – اختار الباحث بعض نماذج يرى أنها تفي بالغرض الذي من أجله كتب المقال ، وهناك نماذج أخرى عديدة من الكتابات الجغرافية الجيدة في سائر الدول العربية لكن احصاءها وعرض نماذج منها أمر يتطلب مزيدا من الوقت ومتسعا من الصفحات •

٣٧ – محمد عوض محمد ، سكان هذا الكوكب ، الطبعة الرابعة ، عام ١٩٥٨ ، ص ٥ •

٣٨ – محمد عوض محمد ، المصدر السابق ، ص ٣٧ •

٣٩ – محمد عوض محمد ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٥٦ – ٥٨ •

٤٠ – جغرافي سوري معاصر توفى منذ بضع سنوات وشغل منصب رئيس وزراء سوريا ، كما تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الرياض ورئاسة قسم الجغرافيا – بجامعة الرياض •

٤١ – محمد محمود الصياد من الجغرافيين المعاصرين وهو شاعر وعضو في مجمع اللغة العربية المصري •

٤٢ – محمد محمود الصياد ، سيد الأنهار ، دار النهضة العربية ، بيروت ، عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) ، ص ١٥ •

وجدير بالذكر أن المسعودي ذكر في كتابه « مروج الذهب » ، ص ٣٧٥ ، ان نهر النيل من سادات الأنهار • (الباحث) •

٤٣ – جمال حمدان من الجغرافيين المعاصرين وتتميز كتابته بالعمق والرمزية احيانا ومما يؤخذ على جمال حمدان كثرة الاستعانة بالألفاظ الأجنبية في كتاباته فاحيانا يستعين بمصطلح انجليزي او فرنسي واحيانا أخرى يستعين بالفاظ او عبارات المانية ويميل أحيانا الى كتابة بعض الكلمات الأجنبية بحروف مثل : الأكيومين Ecumene وتعني المعمور ، واللاندسكيب Land scape وتعني المظهر العام •

٤٤ – جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، عام ١٩٧٧م ، ص ٤٥ •